بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ٥٠ -

ثُمَامَةُ بنُ أُثَال

رضي الله عنه

ثُمَامَةَ بنُ أُثَالٍ بنِ النُّعْمَانِ بنِ سَلَمَةَ بنِ عُتَيْبَةَ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ يَرْبُوعٍ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ الدُّوَلِ بنِ حَنِيفَةَ، الحَنَفِيُّ، اليَمَامِيُّ، أَبُو أُمَامَةَ.

وُلِدَ فِي حُجَرِ اليَمَامَةِ (الرِّيَاضِ اليَوْمِ) فِي إِحْدَى ضَوَاحِيهَا الغَرْبِيَّةِ (عُرَيْجَةَ) التِي تَقَعُ عَلَى ضِفَّةِ وَادِي العُرُوضِ (حَنِيفَةَ)، وَنَشَأَ عَزِيزاً كَرِيماً، وَمَا بَلَغَ مَرْحَلَةَ الشَّبَابِ حَتَّى كَانَ أَحَدَ سَادَاتِ قَوْمِهِ.

وَفِي بِدَايَةِ عَهْدِ الإِسْلَامِ كَانَ سَيِّدَ بَنِي حَنِيفَةَ وَمَلِكَ اليَمَامَةِ هَوْذَةُ بنُ عَلِيٍّ الحَنَفِيُّ. وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كِتَاباً يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الإِسْلَامِ، وَذَلِكَ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ لِلْهِجْرَةِ بَعْدَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَّةِ عِنْدَمَا أَخَذَ بِإِرْسَالِ الكُتُبِ إِلَى المُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ، غَيْرَ أَنَّ هَوْذَةَ بنَ عَلِيٍّ قَدْ كَانَتْ لَهُ مَطَالِبُ فَجَاءَ فِي رَدِّهِ (مَا أَحْسَنَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ وَمَا أَجْمَلَهُ، وَأَنَا

شَاعِرُ قَوْمِي وَخَطِيبُهُمْ، وَالعَرَبُ تَهَابُ مَكَانِي فَاجْعَلْ لِي بَعْضَ الأَمْرِ أَتَّبِعْكَ). وَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَوْ سَأَلَنِي قِطْعَةً مِنَ الأَرْضِ مَا فَعَلْتُ، بَادَ، وَبَادَ مَا فِي يَدَيْهِ». وَقَدْ هَلَكَ (هَوْذَةُ) فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَغَدَا مُسَيْلَمَةُ بنُ حَبِيبٍ الحَنَفِيُّ (الكَذَّابُ) سَيِّدَ قَوْمِهِ.

كَانَ ثُمَامَةُ بنُ أُثَالٍ يُسَامِي (هَوْذَةَ) وَ(مُسَيْلَمَةَ)، وَلَمَّا وَصَلَتْ دَعْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى الإِسْلَامِ إِلَيْهِ، ازْدَراهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا، وَأَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ، وَأَصَمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَمَاعِهَا، وَكَانَ يُقَدِّسُ البَيْتَ وَيَحْتَرِمُهُ كَبَقِيَّةِ العَرَبِ، وَرَغِبَ يَوْماً أَنْ يَزُورَهُ، فَجَهَّزَ نَفْسَهُ وَانْطَلَقَ، وَبَيْنَمَا هُوَ فِي الطَّرِيقِ إِذِ اعْتَرَضَتْهُ سَرِيَّةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَتْهُ أَسِيراً وَهِيَ لَا تَعْرِفُهُ، وَسَارَتْ بِهِ إِلَى المَدِينَةِ، وَشَدَّتْهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ، تَنْتَظِرُ أَنْ يُصْدِرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمْرَهُ فِيهِ. فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَسْجِدِ وَجَدَهُ مَرْبُوطاً فِي السَّارِيَةِ، فَقَالَ: لِأَصْحَابِهِ: هَلْ عَلِمْتُمْ مَنْ أَخَذْتُمْ؟ فَقَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: هَذَا ثُمَامَةُ بنُ أُثَالٍ الحَنَفِيُّ، فَأَحْسِنُوا إِسَارَهُ، وَرَجَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ: اجْمَعُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنْ طَعَامٍ

وَابْعَثُوا بِهِ إِلَى ثُمَامَةَ بنِ أُثَالٍ، وَأَمَرَ أَنْ تُحْلَبَ نَاقَتُهُ فِي الغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ، وَأَنْ يُقَدَّمَ لَبَنُهَا إِلَى ثُمَامَةَ، وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى ثُمَامَةَ بَعْدَ ذَاكَ، وَقَالَ لَهُ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ، فَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَيْنِ عَلَى حَالِهِ، يُقَدَّمُ لَهُ أَفْضَلُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَيُحْمَلُ إِلَيْهِ لَبَنُ النَّاقَةِ، ثُمَّ جَاءَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ قَالَ: مَا عِنْدِي إِلاَّ مَا قُلْتُ لَكَ مِن قَبْلُ: إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ، ثُمَّ جَاءَهُ فِي اليَوْمِ التَّالِي فَأَعَادَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ، فَكَرَّرَ عَلَيْهِ الجَوَابَ، فَالْتَفَتَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى أَصْحَابِهِ، وَقَالَ لَهُمْ: أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ بنَ أُثَالٍ، فَفَكُّوا وَثَاقَهُ وَأَطْلَقُوهُ.

انْطَلَقَ ثُمَامَةُ مِنْ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ نَخْلاً فِي ضَوَاحِي المَدِينَةِ قَرِيباً مِنَ البَقِيعِ فِيْهِ مَاءٌ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ عِنْدَهُ، وَتَطَهَّرَ مِنْ مَائِهِ فَأَحْسَنَ طُهُورَهُ، ثُمَّ قَفَلَ رَاجِعاً إِلَى المَدِينَةِ مُتَّجِهاً إِلَى المَسْجِدِ، فَمَا إِنْ بَلَغَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مَلأٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَشْهَدُ

أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَأَلَ مَنْ كَانَ مِنَ المُسْلِمِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْشَدُوهُ إِلَى مَكَانِهِ فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ، وَمَا أَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ حَتَّى وَجَدَ نَفْسَهُ يَتَصَبَّبُ عَرَقاً، وَعَيْنَاهُ تَذْرُفَانِ دَمْعاً رَغْبَةً فِي لِقَائِهِ مُسْلِماً، وَحُزْناً عَلَى مَا قَدْ فَاتَهُ، وَحَيَاءً مِمَّنْ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، فَقَالَ وَقَلْبُهُ خَاشِعٌ هَيْبَةً وَمُتَطَلِّعٌ إِلَى أَمَلٍ وَاسِعٍ وَحَيَاةٍ رَغِيدَةٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، وَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَوَاللَّهِ مَا كَانَ دِينٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَوَاللَّهِ مَا كَانَ بَلَدٌ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ، ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلاً: لَقَدْ كُنْتُ أَصَبْتُ فِي أَصْحَابِكَ دَماً فَمَا الَّذِي تُوجِبُهُ عَلَيَّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكَ يَا ثُمَامَةُ، فَإِنَّ الإِسْلاَمَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ»، وَبَشَّرَهُ بِالخَيْرِ الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ لَهُ بِإِسْلاَمِهِ.

لَمْ يُعْلِنْ ثُمَامَةُ إِسْلاَمَهُ وَهُوَ مُقَيَّدٌ أَنَفَةً مِنْ أَنْ يُقَالَ: أَسْلَمَ تَخَلُّصاً مِنَ القَيْدِ أَوْ خَوْفاً مِنَ السَّيْفِ، وَلَكِنَّهُ فِي الوَاقِعِ قَدْ تَأَثَّرَ مِنْ إِكْرَامِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَهُ، وَآمَنَ لِمَا رَأَى مِنْ خُلُقِ المُسْلِمِينَ فِي غُدُوِّهِمْ، وَرَوَاحِهِمْ، وَمَكْثِهِمْ، وَحُبِّ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَحُبِّهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَظَافَتِهِمْ وَ. . .

وَأَبْقَاهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَذِهِ المُدَّةَ فِي المَسْجِدِ لِيَتَأَثَّرَ بِمَا يَرَى، وَلِيَتَعَلَّمَ مِمَّا يُشَاهِدُ، وَلِيَعْرِفَ حَقِيقَةَ الإِسْلَامِ عَنْ قُرْبٍ، وَلَقَدْ تَعَلَّمَ فِعْلاً الوُضُوءَ وَسَأَلَ عَنْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، وَلِهَذَا عَرَفَ التَّطَهُّرَ بَعْدَ أَنْ فُكَّ قَيْدُهُ وَانْطَلَقَ مِنْ أَسْرِهِ، وَسَارَ بَعِيداً عَنِ المَسْجِدِ.

وَعَمَدَ ثُمَامَةُ إِلَى هَدَفِهِ فِي زِيَارَةِ البَيْتِ الحَرَامِ، وَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَاللَّهِ لَأُصِيبَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ أَضْعَافَ مَا أَصَبْتُ مِنْ أَصْحَابِكَ، وَلَأَضَعَنَّ نَفْسِي وَسَيْفِي وَمَنْ مَعِي فِي نُصْرَتِكَ وَنُصْرَةِ دِينِكَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ زِيَارَةَ البَيْتِ فَمَاذَا تَرَى أَنْ أَفْعَلَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: امْضِ لأَدَاءِ زِيَارَتِكَ وَلَكِنْ عَلَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ، وَعَلَّمَهُ مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ مَنَاسِكَ.

وَانْطَلَقَ ثُمَامَةُ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَكَّةَ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّلْبِيَةِ، وَلَمْ يَتَعَوَّدْ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَسْمَعُوا مِثْلَ هَذَا، فَهَبُّوا نَحْوَ الصَّوْتِ شَاهِرِينَ سُيُوفَهُمْ يُرِيدُونَ الفَتْكَ بِالقَادِمِ عَلَيْهِم مَهْمَا كَانَ، وَخَشِيَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَمَسُّوهُ بِسُوءٍ عِنْدَمَا عَلِمُوا أَنَّهُ ثُمَامَةُ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَقْطَعَ عَنْهُمْ طَرِيقَ نَجْدٍ، وَأَنْ يَمْنَعَ عَنْهُمُ المُؤُونَةَ بَعْدَ أَنِ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ طَرِيقُ المَدِينَةِ إِلَى الشَّامِ بِسَبَبِ الحَرْبِ القَائِمَةِ

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمِينَ. وَقَالَ لَهُ أَهْلُ مَكَّةَ: مَا بِكَ يَا ثُمَامَةُ؟ أَصَبَوْتَ وَتَرَكْتَ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ فَأَجَابَهُمْ: مَا صَبَوْتُ وَلَكِنِ اتَّبَعْتُ خَيْرَ دِينٍ دِينِ مُحَمَّدٍ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ. ثُمَّ قَالَ: أُقْسِمُ بِرَبِّ هَذَا البَيْتِ لَنْ يَصِلَ إِلَيْكُمْ بَعْدَ عَوْدَتِي إِلَى اليَمَامَةِ حَبَّةٌ مِنْ قَمْحِهَا أَوْ شَيْءٌ مِنْ خَيْرَاتِهَا حَتَّى تَتْبَعُوا دِينَ مُحَمَّدٍ، أَو يَأْمُرُنِي هُوَ بِإِرْسَالِ المَؤُونَةِ إِلَيْكُمْ. وَأَدَّى ثُمَامَةُ عُمْرَتَهُ عَلَى مَرْأَى مِنْ قُرَيْشٍ كَمَا عَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدَّمَ أُضْحِيَتَهُ لِلَّهِ، لَا إِلَى أَصْنَامِهِمْ كَمَا عَوَّدَتْهُمُ الجَاهِلِيَّةُ.

وَرَجَعَ ثُمَامَةُ إِلَى اليَمَامَةِ وَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ فَعَلَهُ أَنْ أَمَرَ قَوْمَهُ بِمَنْعِ إِرْسَالِ أَيِّ شَيْءٍ مِنْ مُنْتَجَاتِ اليَمَامَةِ إِلَى مَكَّةَ، فَامْتَثَلُوا لِأَمْرِهِ، وَاشْتَدَّ الحِصَارُ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ حَتَّى اضْطَرُّوا أَنْ يَكْتُبُوا لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ عَهْدَنَا بِكَ أَنْ تَصِلَ الرَّحِمَ، وَهَا أَنْتَ قَدْ قَطَعْتَ أَرْحَامَنَا فَقَتَلْتَ الآبَاءِ بِالسَّيْفِ، وَأَمَتَّ الأَبْنَاءِ بِالجُوعِ. وَإِنَّ ثُمَامَةَ بنَ أُثَالٍ قَدْ قَطَعَ عَنَّا مِيرَتَنَا، وَأَضَرَّ بِنَا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَكْتُبَ إِلَيْهِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْنَا بِمَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَافْعَلْ. فَكَتَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى ثُمَامَةَ أَنْ يُطْلِقَ لَهُمْ مِيرَتَهُمْ، فَأَطْلَقَهَا، وَقَالَ: أَمَّا الآنَ فَنَعَمْ طَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.

وَتَوَالَتِ الأَحْدَاثُ مُسْرِعَةً، وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَصْبَحَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ خَلِيفَةَ المُسْلِمِينَ، وَارْتَدَّتِ الأَعْرَابُ، وَمِنْهُمْ بَنُو حَنِيفَةَ الَّذِينَ التَفُّوا حَوْلَ مُسَيْلَمَةَ الكَذَّابِ الَّذِي ادَّعَى النُّبُوَّةَ غَيْرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ ثَبَتَ عَلَى الإِسْلَامِ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ ثُمَامَةُ بنُ أُثَالٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالَّذِي حَاوَلَ نُصْحَ قَوْمِهِ، وَثَنْيِهِمْ عَنْ غَيِّهِمْ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ، وَلَامُوهُ عَلَى ثَبَاتِهِ عَلَى الإِسْلَامِ، وَحَاوَلُوا النَّيْلَ مِنْهُ، فَكَانَ يُنْشِدُ:

أَهِمُّ بِتَـرْكِ القَـوْلِ ثُمَّ يَـرُدُّنِي
إِلَى القَـوْلِ إِنْعَـامُ النَّبِيِّ مُحَمَّـدِ
شَكَرْتُ لَهُ فَكِّي مِنَ الغُلِّ بَعْدَمَا
رَأَيْتُ خَيَـالاً مِنْ حُسَامٍ مُهَنَّـدِ

وَعِنْدَمَا جَاءَتْ جُيُوشُ المُسْلِمِينَ لِقِتَالَ بَنِي حَنِيفَةَ انْضَمَّ إِلَيْهَا بِمَنْ مَعَهُ مِنْ قَومِهِ الَّذِينَ ثَبَتُوا عَلَى الإِسْلَامِ، فَلَحِقَ بِعِكْرِمَةَ، ثُمَّ بِشُرَحْبِيلَ، ثُمَّ غَدَا فِي جَيْشِ خَالِدٍ، وَقَدْ حَارَبَ قَوْمَهُ، وَلَمَّا انْتَهَى أَمْرُ بَنِي حَنِيفَةَ أَمَرَهُ الصِّدِّيقُ أَنْ يَسِيرَ بِمَنْ مَعَهُ إِلَى البَحْرَيْنِ لِمُعَاوَنَةِ العَلَاءِ بنِ الحَضْرَمِيِّ فِي قِتَالِ المُرْتَدِّينَ، فَسَارَ إِلَى العَلَاءِ وَالْتَحَقَ بِجُنْدِهِ حَتَّى أَظْفَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. وَاشْتَرَى ثُمَامَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حُلَّةً كَانَتْ لِكَبِيرِ المُرْتَدِّينَ مِنْ

بَنِي عَبْدِ قَيْس بنٍ ثَعْلَبَةَ ـ عَلَى مَا يَبْدُو ـ فَرَآهَا عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ فَظَنَّ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَهُ وَسَلَبَهُ، فَقَتَلُوهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي العَامِ الثَّانِي عَشَرِ الهِجْرِيِّ.